

تعد السردية شكلا من أشكال تنظيم المعنى، يرتب التجربة الإنسانية في حبكة دلالية تجعل العالم مفهوما ومقبولا، فتحدد ما الذي يحدث؟ ولماذا؟ ومن المسؤول؟ وما الذي ينبغي اعتباره طبيعيا أو شاذا؟ بهذا المعنى لا تكتفي السردية بعكس الواقع، بل تشارك في تعريف الواقع ومنحه صفة "المعقول" و"المشروع". غير أن هذه القوة نفسها تجعل السردية عرضة للمساءلة، لأنها بناء لغوي رمزي يقوم على اختيارات وإقصاءات، لذلك يمكن لتحليل تفكيكي أن يكشف هشاشتها ويزعزع بدهتها. بناء على ذلك يبرز التساؤل التالي: كيف تُشرعن السردية الواقع، وكيف يكشف التفكيك هشاشة هذه الشرعنة وحدودها؟

السردية وشرعنة الواقع في منظور البناء الاجتماعي للواقع:

في منظور البناء الاجتماعي للواقع، لا يُفهم الواقع الاجتماعي بوصفه "معطى طبيعيا"، بل بوصفه نتاجا تاريخيا وتفاعليا يُصنع عبر اللغة والتبادل والتصنيف، ثم يترسخ في مؤسسات ومعايير، إلى أن يظهر للأفراد كأنه أمر بديهي لا يحتاج إلى تبرير. ويمكن فهم ذلك عبر سلسلة مترابطة من المراحل والعمليات:

1- الإخراج Externalisation:

البداية تكون من الفعل الإنساني والتفاعل: الناس يتحدثون، يصفون، يبررون، يتفقون ويختلفون. في هذه المرحلة تولد "سرديات" متعددة بوصفها محاولات لتنظيم التجربة. والسردية هنا لا تزال قريبة من لحظة التكوين، لكنها تجعل التجربة قابلة لأن تقال وتُداول، أي قابلة لأن تصبح "مشتركة".

2- التنميط أو التصنيف Typification:

مع التكرار، تبدأ الجماعة في إنتاج قوالب تفسيرية: "هذا النوع من الأحداث"، "هذا النوع من الأشخاص"، "هذا النوع من الأفعال"... إلخ. في هذه النقطة تشتغل اللغة كأداة تصنيف،

وتشتغل السردية كآلة ترتيب: تُدخل الوقائع في "قصة مفهومة" تُسمي العناصر وتوزع الأدوار. هذا التنميط يصبح أساس الشرعنة لاحقا، لأنه يخلق معجما مشتركا يحدد ما الذي يُفهم بسهولة وما الذي يبدو غريبا.

3- الموضوعية Objectivation:

هنا تبدأ النقلة الحاسمة، فيصبح ما كان نتاجا للتفاعل كأنه شيء قائم بذاته. وتُعامل السردية كأنها "ما يجب أن يكون". فيتشكل ما يشبه الواقع الموضوعي، أي عالم من المعاني يبدو مستقلا عن منتجه. وتزداد قوة السردية عندما تتكرر بصيغ متعددة، فيصير حضورها طبيعيا، وتقل إمكانية ملاحظتها بوصفها "بناء" من الأساس.

4- التماسس Institutionalisation:

حين تستقر القوالب، تتحول إلى قواعد وأدوار وتوقعات: ما الذي يُنتظر من الفرد في موقع معين؟ ما السلوك المقبول؟ ما اللغة اللائقة؟ في هذه المرحلة يصبح الواقع الاجتماعي منظومة من المؤسسات (بالمعنى الواسع: قواعد، تقاليد، إجراءات... الخ) تضمن إعادة إنتاج نفس التعريفات. وهنا لم تعد السردية مجرد تفسير متداول، بل صارت منسجمة مع آليات اجتماعية تضبط السلوك وتحدد الحدود.

5- الشرعنة Légitimation:

الشرعنة هي تزويد الواقع التماسس بمبررات تجعله يبدو مبررا ومعقولا ومقبولا، بل أحيانا واجبا أخلاقيا أو "حقيقة" مطلقة. وتجدر الإشارة إلى أن الشرعنة لا تظهر دفعة واحدة، بل يمكن تصورها كدرجات متصاعدة:

أ- شرعنة أولية/ضمنية: تبدأ في شكل عبارات موجزة من نوع "هكذا نفعل عادة"، "هذا هو الطبيعي"، "هذا معروف". هنا تعمل السردية على غلق الأسئلة بدل فتحها.

ب- شرعنة تفسيرية: تنتقل السردية إلى تقديم أسباب معينة: "لأن الأمر يؤدي إلى الاستقرار"، "لأن هذا يحمي القيم"، "لأن هذا هو المنطق". فتصبح الحبكة نفسها أداة تبرير.

ت- شرعنة نظرية/مفاهيمية: يظهر خطاب أكثر تجريدا: مفاهيم، تصنيفات، تمييزات، "نظرة للعالم" تجعل التعريف مقبولا. وهنا تكتسب السردية لغة أقرب إلى "المنطق" أو "العلم" أو "الأخلاق".

ث- عالم رمزي Symbolic Universe: في أعلى درجات الشرعنة تصبح السردية جزءا من أفق شامل يفسر العالم ويمنحه وحدة معنوية (ما الذي يعنيه الخير/الشر، النظام/الفوضى، الصواب/الخطأ... إلخ). وهنا تبلغ الشرعنة أقصى قوتها، لأنها لا تبرر جزءا من الواقع فقط، بل تبرر "العالم كما ينبغي أن يكون".

وعليه، تقوم السردية بشرعنة الواقع حين تنتقل من كونها "ترتيبا للأحداث" إلى كونها تبريرا لبداهات اجتماعية، وتصبح جزءا من مخزون معرفي ومعياري يجعل بعض التفسيرات طبيعية وبعضها الآخر غير معقول أو غير شرعي.

6- الادخال Internalisation:

تتمثل الخطوة الأخيرة في أن يتشرب الأفراد هذا الكون الرمزي أثناء التنشئة. هنا يصبح الواقع المُشرعن جزءا من الهوية. ولا يصبح مجرد فكرة خارجة عن الذات، بل يتحول إلى ما يبدو "قناعة شخصية" و"فهما بديهيا". وعندئذ تتجسد قوة السردية لأنها لم تعد تقنع فقط، بل تصنع ما يشبه "حسا مشتركا" يوجه الإدراك.

لماذا تكون السردية قابلة للتفكيك؟

بعدما فهمنا كيف تنتج السردية واقعا مُشرعنا، يبرز الآن السؤال الثاني: كيف يمكن أن تهتز هذه الشرعنة؟ هنا يأتي منظور التفكيك: ليس بوصفه "هدما للواقع"، بل بوصفه تحليلا لبنية السردية التي قدمت واقعا على أنه طبيعي ونهائي.

ينطلق التفكيك من فكرة بسيطة: السردية تُنتج معناها عبر اللغة، لكن هذه الأخيرة ليست وعاء محايدا، إنها نظام من العلامات لا يثبت فيه المعنى وحده، بل يتشكل بحسب السياق وطريقة الاستعمال. لذلك، لن تجد سردية تخلو من نقاط "توتر" يمكن أن تكشفها القراءة النقدية، مثل:

أ- الثنائيات والتراتبية: كثير من السرديات تبني شرعيتها عبر ثنائيات (صحيح/خاطئ، عقلاني/لاعقلاني، شرعي/غير شرعي...الخ). وهنا يأتي التفكيك ليبين أن هذه الثنائيات ليست طبيعية، وأن أحد الطرفين غالبا يُمنح الأفضلية، بينما يُدفع الآخر إلى الهامش. وحين نفحص كيفية بناء هذه التراتبية، تنكشف هشاشتها، لأن الطرف المهمش غالبا ضروري لتعريف الطرف المفضل، ولأن الحدود بينهما ليست صلبة كما تزعم السردية.

ب- الفجوات والتناقضات الداخلية: السردية تُقدّم كأنها منطق صلب، لكنها غالبا تحتوي انتقالات غير مبررة أو تعميمات أو مفاهيم تُستخدم بمعاني مختلفة حسب الحاجة. وهنا يقوم التفكيك بالتقاط هذه الفجوات، فيُظهر أن تماسك السردية ليس طبيعيا بل مصنوعا، وأن الشرعنة تعتمد أحيانا على إخفاء التعقيد لا على مواجهته.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة سريعا إلى أن الهرمنيوطيقا تذكرنا بأن المعنى ليس شيئا جاهزا داخل السردية، بل يتشكل في فعل الفهم نفسه داخل أفق تاريخي وثقافي، مما يشير إلى أن السردية لا تحمل معنى ثابتا ومغلقا، بل هي قابلة لإعادة القراءة. كما يضيف الحس ما بعد الحدائي نزعة الارتباب على الادعاءات واليقينيات، فيصبح "الواقع المشرعن" أقل إقناعا حين ندرك تعدد السرديات وتنافسها على تعريف العالم.

خاتمة

يتضح إذن أن السردية تملك وجها مزدوجا: فهي من جهة أداة شرعنة لأنها ترافق بناء الواقع الاجتماعي من التفاعل إلى التماسك، ثم تضيف تبريرات متدرجة تمنح هذا الواقع معنى ومشروعية، ثم تُدخل هذه المشروعية إلى الوعي اليومي عبر التندشئة. لكنها من جهة ثانية بناء قابل للتفكيك، لأنها تقوم على ثنائيات وتراتبيات وإقصاءات وفجوات، ولأن المعنى لا يُغلق نهائيا داخل اللغة. لذلك فإن الجمع بين البناء الاجتماعي والتفكيك لا يضعنا أمام تناقض، بل أمام فهم أعمق: كيف تُصنع البدهة اجتماعيا، وكيف يمكن لقراءة نقدية أن تكشف حدودها وهشاشتها؟